

الإسلام في أوروبا

تأليف: فرنسيسكو غابرييل
تعليق: د. عز الدين إسماعيل أحمد

بعد هذا الكتاب واحداً من أهمّ الكتب الأجنبية التي أرخت للإسلام خارج العالم الإسلامي بقلم واحد من المستشرقين والمتخصصين في العلوم العربية، وهو كتاب يعد بالمعنى المكتبي لبنة أساسية في صرح المكتبة العربية.

ويتألف هذا المجلد الضخم من ٢٧٨ صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على ٥٤٠ صورة، أشرف على إخراجه عالمان مستشرقان لهما باع طويل في هذا المجال.

(الأول) هو الإيطالي (فرانشيسكو غابرييلي) صاحب الفكرة، والذي تعهد بها بمساعدة نفر من الباحثين الإيطاليين حتى خرجت إلى النور بالطبعة الإيطالية.

وفرانشيسكو غابرييلي أستاذ سابق في جامعة السربون، وهو متخصص كرس حياته لدراسة التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى والحديثة. ومن مؤلفاته نذكر الكتب التالية:

- ١ - محمد.
- ٢ - العرب.
- ٣ - محمد وغزوات العرب الكبرى.
- ٤ - الحروب الصليبية.
- ٥ - الشعر الديني في صدر الإسلام.
- ٦ - الأدب العربي الجاهلي.

أم (الثاني) المشرف على الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب، فهو المستشرق الفرنسي جان بول رو أستاذ الفن الإسلامي بمدرسة اللوفر، والباحث بالمركز القومي للبحوث العلمية «S.N.R.S» وقد أصدر العديد من البحوث والكتب حول الإسلام وفنونه، تتعلق بوجه خاص بالأتراك، كان آخها كتاباً بعنوان (ديانته الأتراك والمغول) صدر في عام ١٩٨٣م.

* * *

لقد أصبحت الكتابة عن الإسلام والعرب والمسلمين سمة من سمات العصر، ذلك أن الصحوة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم ما يصاحب ذلك من مشكلات وأزمات وصراعات، جعلته في مقدمة الاهتمامات التي تشغل العالم أجمع، ومن ثم

خرجت إلى النور العديد من البحوث والكتب التي تتناول بالدراسة هذا العالم الإسلامي من حيث الطبيعة والأرض والتاريخ والدين والثقافة والفكر والاجتماع.

وإذا كان هذا المجلد يندرج في قائمة هذا الإنتاج العلمي الضخم، فإنه كذلك يسد بعض ثغراته؛ لأننا قد نجد بعض مادته في ثنايا غيره من المؤلفات، غير أن ما يميز هذا المؤلف أنه يلم بأطراف موضوع لم يسبق معالجته بشكل متكامل بالكلمة والصورة على النحو الذي تحقق لهذا المجلد.

لقد أراد مؤلفنا هذا الكتاب تحليل العلاقات الوثيقة القديمة والحديثة التي تربط بين العالم الإسلامي وأوروبا طوال ألف وثلثمائة عام من تاريخ البشرية، تلك الحقبة التي تمتد بين تاريخين هامين، الأول عام ٦٢٢م الذي شهد مولد الإسلام، والثاني عام ١٩٢٢م الذي شهد الثورة التركية بزعامه مصطفى كمال أتاتورك، تلك الثورة التي كانت بداية مرحلة جديدة من التاريخ، وهي المرحلة التي نعيشها الآن.

والعلاقات الوثيقة التي يحاول هذا الكتاب دراستها لا تقتصر على الحربية منها، والتي مازالنا نذكرها حتى الآن، وأهمها معركة (بلاط الشهداء) بواتييه والحروب الصليبية، وسقوط القسطنطينية، وحصار البندقية، ولكن الكتاب يهتم أيضاً بالعلاقات السلمية القائمة على حسن الجوار والتعايش السلمي والأخذ والعطاء. فهناك وجود إسلامي في أوروبا الشرقية وجنوب شرق أوروبا، بالإضافة إلى المهاجرين من المسلمين في أوروبا، والأوروبيين الذين أعتنقوا الإسلام حديثاً. ولا ينبغي أن ينسى ذلك حقيقة مهمة، وهي أنه إذا كان الإسلام لم يتمكن من تحقيق هدفه بضم أوروبا إلى حظيرته، فقد ظل دائماً مصدر تهديد لهذه القارة. وأقام فيها ردحاً من الدهر وغرس فيها غرسه الذي أثمر وأزهر الكثير من طيب ثماره وبناع أزهاره.

وإذا كانت المحاولات المتعصبة قد أزلت أكثر هذه الآثار؛ فلم يزل هناك الكثير منها تحت أسماء عديدة، منها قصر الحمراء، وقصور غرناطة وأشبيلية والسالمية. لقد

كانت هناك أوروبا المسلمة فى يوم من الأيام استمرت قرابة ثمانية قرون فوق أرض أسبانيا وقرابة خمسة قرون فى بلاد الكرم وأكرانيا وضاف الفولغا، وحوالى ثلاثة قرون فى جزيرة صقلية. ومن يدرى؟ فى بعض أطراف من فرنسا المسلمة تراوح عمر الإسلام بين عشرات السنين والقرن الكامل. ولقد ظل الروم يخضعون للمسلمين قرنين كاملين (١٢٢٣ - ١٤٢٣م) وكذلك خضع اليونانيون والرومانيون والبلقان أربعة أو خمسة قرون، كما ظلت المجر خاضعة للمسلمين مائة وخمسين عاماً.

كل ذلك له أهميته ووزنه. ولكن الذى يهمنا أكثر ويزن أكثر فى تاريخ الحضارة هو ما يمكن أن نطلق عليه : أسلمة (أوروبا).

على أثر سيادة العلوم والثقافة والفلسفة الإسلامية فى ربوع أوروبا، يكفى أن نذكر اسم ابن رشد الذى سيطر على العقول الأوروبية طوال العصور الوسطى، والأصداء الإسلامية فى كتاب (دانتى) الشهير (الكوميديا الآلبيهة) وفى أعمال (غوته) وإنتاج الرومانسيين الفرنسيين. الواقع أنه مهما بلغ التصدى للتأثير الإسلامى من عنف وتعصب، ومهما بلغت الرغبة فى التخلص منه من الحدة والقوة، فلا يمكن بأية حال أن ينكر هذا التأثير، أن أوروبا ما كانت لتكون ما هى عليه الآن لو لم تعرف الإسلام وتتأثر به. لقد أصبح الإسلام جزءاً لا يتجزأ من تراثها وحضارتها. وإذا كنا فى هذا الكتاب نبحث فى الإسلام والمسلمين، فنحن فى الواقع إنما نبحث إلى حد ما فى أنفسنا وفى أصولنا.

ذلك ما يعترف به (جان بول رو) أحد لشرفين على هذا المجلد. والكتاب بعد ذلك لا يزعم الإمام بكل المباحث التى تدخل فى إطار هذا الموضوع الواسع، وإنما هو عبارة عن مدخل إلى هذا العالم الفسيح. ومن يدرى لعل القارىء الأوروبى بعد هذه الإمامة بالإسلام والمسلمين أن يزداد فهمه لتاريخ بعض المدن والمقاطعات الأوروبية، ويعمق إدراكه لأعمال بعض الكتاب والفنانين الأوروبيين، مثل: (دانتى) و(دى

لاكروا) ويعرف بعض الحقائق التي كان يجهلها عن الملاحة وعلم البحار والرياضيات والفلك والطب والنحت والتصوير والأدب أيضاً.

فن التصوير فى إيطاليا:

تعتبر حكاية علاء الدين والمصباح السحري من أكثر الغرائب المتعلقة بالعالم الإسلامى شيوعاً بين الأوروبيين، ويستغل الكاتب هذه الحكاية والرمز الذى تشير إليه؛ ليعقد مقارنة بين عملية حك المصباح التى يظهر على آثارها خادمه الجنى، وبين حال الأوروبيين، وهم يتأملون بعض الأدوات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية وأصبحت مألوفة لديهم؛ لأنها صارت جزءاً من ثقافتهم وحضارتهم، ولكنهم حينما يمعنون النظر فى هذه الأشياء، تتجلى لهم تأثيرات إسلامية لم تكن تخطر لهم على بال. إن هذه التأثيرات تبدو غريبة لعين الناظر فى هذه الأشياء؛ لأن ماتتضمنه من عناصر إسلامية وعربية قد اختلط بها وأندمج فيها وأصبحت جميعاً جزءاً لا يتجزأ من حياة الأوروبيين اليومية، بحيث لم يعد أحد يفكر فى أصولها الشرقية. وفى فترة متأخرة من التاريخ بدأ الأوروبيون يفكرون فى دراسة وتحليل العناصر التى يتكون منها تراثهم الثقافى والحضارى، فكشف لهم على سبيل المثال فى عام ١٨٤٥ م وجود بعض الحروف العربية ضمن تكوين بعض اللوحات الفنية التى ترجع إلى العصور الوسطى، حتى أن بعض المتعصبين منهم لم يتردد فى توجيه الإهانات والسباب إلى مكتشف هذه العناصر (الدخيلة)، ولعل أشهر حالة لهذا الأثر تتجلى فيما درج عليهم المصور الإيطالى الشهير (جوتو GIOTTO) (١٢٦٦ - ١٣٣٧ م) من استخدام الحروف الكوفية فى تزيين الملابس التى يرتديها بعض الشخصيات الشهيرة فى الديانة النصرانية فى بعض لوحاته المشهورة، وذلك كنوع من التجديد الفنى دون اهتمام بدقة النقل والتقليد. وقد سار على هذا النهج عدد غير قليل من مصورى العصور الوسطى فى إيطاليا حتى القرن الخامس عشر الميلادى، ومن أشهرهم (سيمون مرتينى Simon Martini) و(فرانجيليكو Fraangelico) و(دى فيليپوليبى Pilippinolipi) و(جينتيلى دافابريانو Gentile Dafabtiano).

ومن ناحية أخرى، لم يقتصر التأثير الإسلامى على عناصر إسلامية يسخرها الفنان الغربى ويدخل عليها بعض التحويل والتحوير، وإنما يتعدى ذلك إبداعات أصلية لفنانين مسلمين، تتمثل فى تحف من أعمال الزجاج والبرنز والنسيج والعاج، درج استعمالها فى ثنايا الفنون النصرانية المقدسة، من ذلك ما تحتويه كنوز مخلفات كنيسة لاسكالاسانتا فى روما من عاديات إسلامية، وبوجه خاص، خزانة نقش عليها اسم الجلالة بالعربية متكرراً عدة مرات، وهو أمر أذهل الجميع؛ وبالذات لأن هذه المخلفات فى قدس الأقداس الذى كتبت على واجهته عبارة باللغة اللاتينية تحذر من الاقتراب من المكان؛ لأن المكان يعتبر أقدس بقعه فى الديانة النصرانية. وفى بعض الأحيان يذهب بعض العامة من النصارى إلى الاعتقاد فى بعض العاديات الإسلامية؛ لاعتبارها مخلفات نصرانية شرقية، من ذلك قطعة من النسيج من العصر الفاطمى محفوظة فى كنيسة إبط، وهى تحمل اسم الخليفة المستعلى والشهادة الإسلامية، صار الاعتقاد بأنها الخمار المقدس للقديسة «آنا»، ويضم متحف اللوفر بباريس أشياء من هذا القبيل.

وهناك عنصر إسلامى آخر ترك بصمات واضحة فى فن التصوير المقدس وغيره، ألا وهو السجاد الذى استحوذ بألوانه ونقوشه على إعجاب الأوروبيين منذ العصور الوسطى، وتم جلبه بكميات كبيرة لاستعماله فوق الأرض وعلى الجدران وفوق المناضد. وقد جرت العادة حتى اليوم على إطلاق أسماء عربية إسلامية على بعض أنواع من السجاد من صنع بعض مشاهير المصورين الإيطاليين، منهم لوتو Lotto وبيلىنى Bellini.

بعد ذلك، وخلال الاحتكاكات التى جاءت على أثر بعض الحروب ومنها حرب الكرم، انطلق استعمال الألوان الصارخة فى الأزياء النسائية عند الأوروبيات، كما أن القرن الخامس عشر شهد تأثير النعال وأغطية الرأس التى أخذها الأوروبيون عن المسلمين. ولعل استعمال الأوروبيين للقبعات الضخمة التى تظالعا فى التصوير فى القرن الخامس عشر مأخوذ مع نوع من التحوير عن الشرق الإسلامى. ومن غريب

التأثيرات الإسلامية في مجال التصوير ما يحكى عن أحد الباباوات الذى كان بطل الوحدة التى لم تتحقق لتعارضها مع بعض المصالح الخاصة .. الذى يهمنى في هذا الصدد هو أن مدينة فلورنسا الإيطالية قامت ، رغم ذلك ، بتنظيم حفل تكريماً لهذا الداعية إلى الحرب المقدسة ضد الإسلام . والغريب أن الحفل المذكور كان حافلاً بالعناصر الإسلامية التى كانت بادية في أركانها وفي بعض فقراته . ومن أمثلة ذلك تصميم حملة لصيد الأسود في ميدان " السبنوريا " وقد دلت بعض الدراسات على أن " أحد سكان فلورنسا هو الذى أدخل هذه الفقرة في الحفل وكان قد سبق له أن شاهدها في السودان وفي سوريا "

وإذا كان من المستغرب أن نلاحظ التأثير الإسلامى في الوقت الذى يتم فيه مكافحته والقضاء عليه إلا أنه على الرغم من الاختلافات السياسية والدينية فقد كان هناك تقدير وتذوق للعناصر الإسلامية بالنظر إلى طرافتها ومهارة الفنانين المسلمين التى شملت مجالات مختلفة . ومن ذلك أن كثيراً من أعمال الزخرفة والزينة في أوروبا تم تنفيذها على الطريقة الشرقية العربية . يشهد بذلك ما يطالعنا في بعض التصميمات التى قام بتنفيذها كل من: الإيطالى (ليوناردو دافنشى (L.D.A vinic) و (الألمانية دورير (Dwrer).

وعلى مستوى الفلسفة الدينية، فقد ذهب عبد الرحمن بدوى إلى أن الرهان الشهير الذى دعا إليه الفيلسوف الفرنسى النصرانى (باسكال Pascal) في القرن السابع عشر الميلادى له نظير يتمثل في الميزان العادل عند الفيلسوف المسلم (الغزالي) في القرن الثانى عشر الميلادى.

وعلى الصعيد الأدبى، نعتبر مسرحية « باطلان » التى تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادى مقتبسة من إحدى حكايات الجاحظ في كتابه الشهير (الحيوان) الذى يعود إلى القرن التاسع الميلادى .

ولاشك أننا هنا لا نسوق إلا بعض الأمثلة القليلة؛ لأننا لا نستطيع في مثل

هذا المجال الواسع أن نحصى ما تركه التراث الإسلامى من بصمات فى الفنون الأوروبية المختلفة . كذلك فقد آثرنا فى هذا الكتاب أن نشير إلى بعض التأثيرات التى قد يصعب تصديقها أو الإقرار بها لقلة شيوخها .

أما فى مجال العمارة فهناك تأثيرات معروفة وشائعة ومن السهل إثباتها وتحقيقتها . إن مثل هذه التأثيرات تتجلى واضحة لكل من شاهد العمارة الإيطالية الدينية والمدنية فى العصور الوسطى . بدءاً من المنشآت النورماندية الضخمة حتى الكنائس الصغيرة . إن الإلمام بحجم التأثير الإسلامى فى مجال العمارة الأوروبية فى العصور الوسطى عملية صعبة وشائكة . كما أن الغموض ما يزال يكتنف الكثير من جوانبها بحيث أن دراستها دراسة شاملة وبشكل واضح وحاسم يعتبر ضرباً من التهور والتسرع .

العرب والأتراك فى الأدب الأوروبى:

تزداد الهوة إتساعاً بين العالمين الإسلامى والأوروبى النصرانى كلما توغلنا فى التاريخ والعكس صحيح . ومع ذلك فإذا كانت الحروب التى اندلعت بينهما فى العصور الوسطى شهدت نوعاً من المواجهة الصريحة العنيفة إلا أنها لم تصور العدو باعتبارها تجسيدا للشر . إن الصور التى تمثل ملحمة (رولاندو) (٣) على زجاج كاتدرائية (شارتر) تصور الفارس المسلم والفارس النصرانى المتلاحمين بالحرب على درجة واحدة من الشجاعة والإقدام ، بل إن (البطل العظيم صلاح الدين) كما درج على وصفة الكاتب الإيطالى الأشهر (بوكاتشو Boccace) قد بلغ فى تقدير الأوروبين ما بلغه الملك فردريك الثانى من لمجد والشهرة ، الأمر الذى يشير إلى أن العدو المسلم تمكن من أن يصبح رمزاً لأسمى الصفات وأنبى الخصال . وقد استمرت هذه الصور وانعكست فى كثير من إنتاج شعراء الملاحم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من أمثال (بولاردو Bolardo) و (أريوست Arioste) و (تاس Tasse) .

وقد تغيرت هذه النظرة في الأدب حينما انتقلت زعامة العالم الإسلامي إلى أيدي الأتراك، وبنوع خاص بعد الهزيمة الكبرى التي منيت بها جيوش النصارى في معركة (نيكوباليس) عام ١٣٩٦م. فقد جعلت أوروبا تنظر إلى الخطر الإسلامي نظرة جادة. وفي البداية كان من الصعب على الأوروبيين التسليم بأن الجيوش الصليبية الجرارة التي قطعت على نفسها العهد بالدفاع عن الصليب وحماية معاقل النصرانية يمكن أن تفتن بما منيت به من هزيمة نكراء على أيدي المسلمين، حتى لقد بلغ الأمر أنهم ألقوا القبض على من أعلنوا أخبار الهزيمة، وزجوا بهم في السجون باعتبارهم مروجي إشاعات مغرضة ودعاة هزيمة. غير أن سقوط القسطنطينية قطع الشك باليقين، وكشف عن قوة المسلمين الحقيقية، الذين أصبحوا من فورهم يمثلون جانب (الأشرار)، بل يجسدون الشر نفسه في نظر الأوروبيين. وكثرت المناقشات حول الإسلام والمسلمين باعتبارهم جنود المسيح الدجال، غير أن ذلك كله لم يمنع مفكراً مثل المصلح الديني (مارتن لوتر) بالرغم من نظراته السيئة إلى الإسلام، من أن يمدح فيه بعض الجوانب بمقارنتها بالمظالم التي كان يرتكبها البابا وأعوانه. ومن ناحية أخرى، فقد تبارى النصارى الكاثوليك من ناحية والبروتستانت من ناحية أخرى، خلال معاركهم، في مدح الإسلام ورد الاعتبار إليه، وبخاصة على الصعيد الأخلاقي والثقافي، وذلك في غمار قيام كل مذهب بإبراز عيوب المذهب الآخر.

ومن هذا التحول في النظرة إلى الإسلام، نشهد تحولاً في صورة المسلم عند الأوروبيين، لقد أصبح العالم الإسلامي في عصر النهضة مصدر رعب وفتنة وتجسيدا للقسوة والوحشية. ومع ذلك، فبجانب هذه القسوة نشأت بعض المفاهيم الأخرى مع الأيام. فهذا (جانباتيستا جيرالدي) في القرن السادس عشر يصور السلطان سليم الثاني عنيقاً قاسياً، ولكنه ينسب عنفه وقسوته إلى غيرته العاطفية. ولعل الأبيات التالية التي تردت خلال حفل راقص في بلاط الملك لويس الثالث عشر توضح هذا التحول:

هذا التركي الذي تشاهدونه أمامكم مجنون، ولكن ليس إلى الدرجة التي نجعلنا نبغضه، إنه تاج على رؤوس الغيورين.

فبعد أن كان التركي البطل الباسل الهمام والمحارب الذي لا يشق له غبار مبعث حقد وكراهية، أصبح عاشقاً تحركه العواطف ويحظى بكل تقدير وتعاطف. وتغيرت صورة الأتراك في البليغات الراقصة مع أواخر القرن الماضي، بعد توطد العلاقات بين النصارى والمسلمين في أوروبا الشرقية. فلقد ظهرت صورة التركي (العاشق) والمغربي الشهم المتيّم.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك شخصية (عطيل) في مسرحية شكسبير، وفي تلك الاثناء كانت الأحداث المعاصرة مصدراً خصباً لأعمال درامية كوميدية وتراجيدية، استوحاها الكاتب من تاريخ الدولة العثمانية. ومن قبل ذلك كان البطل الفاتح المسلم (تامولاند) قد أوحى إلى الكاتب المسرحي الإنجليزي الكبير (مارلو Marlowe) بموضوع إحدى مسرحياته. ثم جاء سليمان العظيم ليكون مادة خصبة لسلسلة من الأعمال المسرحية، نذكر منها:

سليمان للإيطالي (بوناريللي Bonarelli)، ثم مسرحية إبراهيم أو الباشا العظيم للكاتب (مادلين دي سكوديري).

في هذه الأعمال وفي غيرها، جاءت صورة سليمان الذي أثر تأثيراً واسعاً في تاريخ أوروبا، من علاقاته المركبة والمعقدة بأبنائه في صراعهم فيما بينهم من ناحية وعداوتهم لمحظية والدهم الجميلة روكزيلاند (زمرد) والوزير إبراهيم من ناحية أخرى.

ولم يكن سليمان وحده هو الذي أثر في المسرح الأوروبي بالموضوعات التي تدور حوله، بل كانت هناك شخصيات عثمانية أخرى، نذكر منها: عثمان الثاني أول سلطان يتم اغتياله على أثر ثورة الإنكشارية، هذه الشخصية كانت موضوع مسرحية للكاتب (تريستان ليرميت)، ثم هناك شخصية (دبايزيد) ابن مراد الرابع التي خصها الكاتب المسرحي العظيم (راسين) بإحدى مسرحياته. بعد ذلك جاء دور

الأعمال المسرحية الهزلية، فهذه مسرحية (موليير) الشهيرة البرجوازي النبيل، تتضمن بعض الشخص من الأتراك الذين يتحدثون لغة عربية تتردد أثناءها بعض الألفاظ التركية، مثل (يوك) والعربية مثل لفظ الجلالة. كما تتضمن المسرحية حفاً تركياً مسلماً.

وجاءت هزيمة العثمانيين أمام حصون فيينا في أواخر القرن السابع عشر، لتضع حداً للفرع الذي كان يثيره ذكر الأتراك في أوروبا. وحلت السخرية من هذا العدو محل الخوف والفرع.

في القرن التاسع عشر أصبح الخوف من هجوم إسلامي ضد أوروبا مجرد ذكرى، بل ومع التوسع الأوروبى الاستعماري انقلب الوضع تماماً.

ومع تغير المشاعر والأدوار، أتاحت الفرصة للأوروبيين لدراسة الواقع الإسلامى وفهم حقيقة البلاد الإسلامية. ومن قبل ذلك، فى القرن الثامن عشر، تمكن كلا من مارسيلى و أوهمون من دراسة الأمبراطورية العثمانية، وقدماً عنها صورة دقيقة مدعمة بالصور. ثم جاءت حملة بونايرت على مصر فكانت فرصة أخرى لدراسات أخرى مستفيضة ومتعمقة.

ولكن إذا كانت العلوم الإسلامية معروفة لدى أوروبا منذ العصور الوسطى. وإذا كان الأوروبيون قد حققوا تقدماً واضحاً فى الإطلاع على شمائل المسلمين وحياتهم اليومية، فقد ظل الأدب والفن يعيدان عن إدراك الأوروبيين، إلا ما ندر من بعض الجوانب الشعبية الشائعة. ظل الأدب مغلقاً على الأوروبيين باستثناء بعض الترجمات التى تركت بصمات واضحة فى الفكر الغربى.

من أبرز هذه الترجمات كتاب ألف ليلة وليلة وبعض القصائد للشاعر الفارسى (حافظ) مع أنها كلها تمت فى القرن الثامن عشر وبصورة ناقصة، بالإضافة إلى ما داخلها من تحرير وتغيير ولقد كانت قصائد (حافظ) المصدر الإسلامى الرئيسى الذى إستلهمه شاعر ألمانيا الأعظم غوته.

كما أن محاولة (غوتة)، في صدر شبابه أن يكتب مسرحية عن الرسول ﷺ كانت دليلاً على تعاطفه وشعوره النبيل نحو مؤسس الدين الإسلامى. وذلك على النقيض مما فعله كاتب آخر مثل فولتير الذى أسخط عليه نابليون بسبب تناوله غير اللائق لشخصية الرسول ﷺ فى بعض أعماله المسرحية.

وجدير بالذكر أن الترجمة الفرنسية لكتاب ألف ليلة وليلة التى قام بها غلان تركت عظيم الأثر فى خيال الأوروبيين. فقد استوحاها الكاتب الفرنسى كريبيون فى عدد من حكاياته وكذلك وليم بيدفور فى قصته حول أحد الخلفاء العباسيين.

ومن ناحية أخرى، فقد ألهمت طبائع الأتراك وتصرفاتهم خيال بعض كتاب المسرح فى مدينة البندقية وعلى رأسهم الكاتب الشهير غولدونى.

ولعل الموضوع الذى استحوذ على حماس الجماهير الأوروبية أكثر من غيره، كان موضوع وضع المرأة فى البلاد الإسلامية ومكانة الحريم. هذا الموضوع الذى أثار اهتمام الموسيقار المعروف (موزار) فعالجه فى عمل موسيقى بعنوان سلب القصر، كما أن لحنه الشهير بعنوان المارش التركى اعتمد على معرفة (موزار) معرفة تامة بالموسيقى العسكرية التركية.

وكان الصليبيون قد نقلوا من الشرق عادة استخدام آلات النقر الموسيقية فى الموسيقى العسكرية، وبعد فترة من النسيان، عاد هذا الاستعمال إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر أكثر قوة وانتشاراً.

لقد أمر أغسطس الثانى ملك بولندا بإحضار فرقة موسيقية من تركية، الأمر الذى كان بداية لطلب المزيد من الموسيقيين الشرقيين فى أوروبا.

وحيثما كان يتعذر إحضار الموسيقيين الأتراك كان يحل محلهم آخرون سود لعزف موسيقاهم التى كانت تعرف بالموسيقى الانكشارية... لقد انتشر استعمال الآلات الموسيقية الشرقية حتى بين السيدات الأوروبيات اللاتى كن يهوين العزف على بعض الآلات، وقد قام (هنرى فاريمو) بدراسة أثبت فيها أثر الموسيقى

الإسلامية على الموسيقى الغربية. كما قام بعمل قائمة بأسماء الموسيقيين الغربيين الذي اقتبسوا موضوعاتهم من الشرق وتأثروا بالموسيقى الشرقية. فبالإضافة إلى موزار، الذي سبق ذكره، ضمت هذه القائمة الطويلة عدداً من الموسيقيين نذكر منهم ومن أعمالهم الشهيرة شيرويني مؤلف (على بابا) وفيليبسيان ديفيد واضع (رقصات عربية) وتشايكوفسكى صاحب (كسارة البندق).

أما في مجال التصوير قد كان من الضروري أن يكون هناك نوع من الاتصال المباشر بين الفنانين وبين العالم الإسلامي. ومن ثم استجاب المصور جنتيلي بيليني لطلب السلطان التركي وأقام فترة طويلة في استنبول يستلهم مناظرها الخلابية.

وكذلك الحال بالنسبة للفنان فيتور كاراباتشو نظراً للعلاقات التجارية التي كانت تربط بين البندقية والأتراك، وفي القرن الثامن عشر أصبح الفنان جان باتيست فان مور من رواد بلاط السلطان أحمد الثالث، في حين عاش الفنان جان إيتيان ليوتار على الطريقة التركية في مدينة ازمير.

ولعل أشهر المصورين المستشرقين بالمعنى الحرفي للفظ هو الفنان الهولندي الشهير رامبرانت الذي اهتم اهتماماً كبيراً بفن التصوير الإسلامي بحيث قام بتقليد بعض المنمنات المنغولية ونقلها نقلاً دقيقاً.

أما في فرنسا فقد بدأ الاستشراق في الفن بظهور لوحتين شهيرتين الأولى معركة ابي قير (١٨٠٦م) للفنان انطون جان غرو والثانية ثورة القاهرة.

ففي هاتين اللوحتين وبالذات الثانية، نجد جميع العناصر التي تميز هذا النوع من التصوير: الملابس الفاخرة، والأسلحة الشرقية، والحركات العنيفة، والألوان المتناقضة. ولعل ذلك ما أدى إلى ظهور أعمال (دي لاكروا) ولوحاته عن الشرق، (شرق الأحلام) على وجه الخصوص لوحته المعروفة بعنوان موت ساردانابال (١٨٢٧م).

وفى القرن التاسع عشر، بدأت مرحلة متطورة من الاتصال بالشرق الإسلامى، حينما دأب الكتاب والفنانون الأوروبيون على الارتحال إلى الشرق بحيث أصبح هناك ما يعرف بأدب (الرحلات) إلى الشرق وقد أسفر هذا الاتصال المباشر عن عدد من المفاجآت . من ذلك دى لاكروا أثناء رحلة إلى الشمال الافريقى (١٨٣٢م) اكتشف أن نظام الحريم فى الإسلام جميل كتظهيره (نظام الخدر) عند الإغريق القدماء. كذلك رأى الفنان فى هذا النظام امتداداً لنظام الحمامات عند قدماء الإغريق.

ومن ناحية أخرى، أصبح الشرق يجذب العديد من الكتاب الغربيين الذين تطول القائمة لو حاولنا حصرهم. وقد تفارت سحر الشرق عند الأوروبيين، فهو مجرد نزوه وتخييل عند البعض من أمثال. جيراردى نيرفال و كوليريدج و سائر الرومانسيين، ولكنه دراسة واحتكاك مباشر كما هى الحال بالنسبة للترجمات والتقارير التى قام بكتابتها (بورتون) ولا يفوتنا الإشارة إلى الكاتب الفرنسى الشهير (بيبولوتى) الذى كان يعشق تركيا ويتعاطف مع الإسلام وحققت مؤلفاته عن الشرق والإسلام نجاحاً كبيراً بين جماهير القراء.

الكتاب يفيد إضافة أساسية فى المكتبة العربية، فقد تميز بالدراسة التاريخية المتعمقة فى نواحي وموضوعات غير تقليدية تتصل بالفن والعمارة والرسم والتصوير والملابس وتأثيراتها الإسلامية على الحضارة الأوروبية والعالم المسيحى المتعصب. إن تجمع هذا العدد من المستشرقين الأوروبيين لدليل على عظمة الدور الإسلامى فى تاريخ البشرية.